المسيحية والمدنية الغربية – الميرون وتقديسه عند الاقباط – اهم المقالات الشرقية في مجلات الاستشراق

المسيحية والمدنية الغربية

ما علاقة المسيحية بالمدنية الغربية الحاضرة ؟

هذا سؤال طرحه السيد احمد الرفاعي على مجلة الشرق والغرب فاجابت : (ص ١٢٥ ، سنة ١٩٣٠)

سؤال بعث به الينا احد القراء الكرام . وليس هذا القول مستحدثاً ، وانما هو قول شائع يتردّد صداه في كل ارجاء الشرقين الاقصى والادنى . فعند ما يسمع الشرقي تعاليم المسيح ومبادئ المسيحية وما انطوت عليه من محبة وخدمة وتضحية وتقديس للشخصية البشرية ؛ وما تدعو اليه من امانة واخلاص وقداسة وعفة وطهارة ؛ عند ما يسمع الشرقي كل ذلك ، ويلتفت الى الغرب المسيحي ، يتولّاه الدهش ويتساءل قائلاً : ما هذه المدنية المسيحية وكيف يكون المسيح ملك السلام والمحبة ولا همّ لاتباعه الا اثارة عوامل الحقد والضغناء والانصراف الى الجشع المادي والمطامع الاشعبية ؟ وكيف يكون المسيح ملك الطهر وبرّ الحياة وقداسة النفس ويحيا العالم المسيحي حياة تتناقض تماماً وهذه الحقائق ؟

هذه الاقوال وغيرها تتوارد على مخيّلات الناس في الشرق : وكلما رأوا عيباً او شذوذاً في حياة الغرب راحوا يندّدون بالمسيحية ويحكمون عليها بما يرونه في العالم المسيحي من نقائص وعيوب .

ولا بدّ لنا هنا ان نكرر القول الذي سطرناه مراراً وتكراراً على

صفحات هذه المجلة ، وهو وجوب التفريق بين المسيحية وبين المدنية الغربية ، واستئصال تلك الفكرة العتيقة البالية التي تزعم ان تصرفات الحكومات والشعوب المسيحية هي المحك الذي يعرف به الدين المسيحي . فلسنا نعتقد مطلقاً ان هناك مدنية مسيحية او حكومة مسيحية او شعباً مسيحياً بالمعنى الصحيح الكامل .

وهذا القول لا ينفي وجود علاقة ما بين المسيحية والمدنية الغربية . والواقع اننا اذا قسنا المدنية الغربية بمدنيات العصور الماضية او المدنيات الاخرى — القائمة على اديان غير مسيحية — وجدنا المدنية الغربية درة مرصعة في تاج الحضارات العالمية الاخرى . واما اذا قسنا المدنية الغربية بإقيسة تعاليم ومبادئ المسيح فهنا — وهنا فقط — تبدو لنا نقائصها وعيوبها .

ألا يرى حضرة السائل الكريم فضل المسيحية على المدنية الغربية ؟ ألم تقض على ضروب القسوة ، وتهذب العاطفة البشرية حتى وسط الحروب والمظالم ؟ ألم تمنع الرق ، وتمنع السخرة ، وتنصر الحرية الشخصية ، والقومية ، وتشفق على المرضى ، وتواسي اليتامى والارامل ، وترفع مكانة المرأة ، وتحمي ضعف الطفولة ؟ ألم تقدس العمل ، وتطهر العلائق البشرية والعائلية ؟ ألم تدفع المشرعين ورجال الاصلاح للعمل على صيانة الاداب العامة وقواعد الحق والعدل والشرف ؟

كل هذه المظاهر وغيرها التي تتصف بها المدنية الغربية انما خلعتها عليها مبادئ وتعاليم المسيح . اما ما نراه من سيئاتها فراجع الى حيدة تلك المدنية عن الاخذ بالمبادئ المسيحية الصحيحة .

وبيّن الكاتب بكامل الوضوح كيف ان المسيحية ليست ميزة الغرب دون الشرق . وهي ، وان تكن قوية النفوذ في المثقفين بواسطة نفوذ الامم الغابضة على زمام العالم ، الدائنة بدين المسيح ، فليست قوتها مؤسسة على قوة الغرب ، بل الغرب آخذ عنها او عن المسيح وتعليمه ، اساس محاسنه وخيراته . اما كون الكثيرين من الغربيين مبتعدين عن المبادئ الانجيلية فابتعادهم جملة سببه عدم اهتدائهم هداية صادقة في أصل تنصرهم ، ذلك مما اثر في باقي تاريخهم ، كتنصر المسكوب بتنصر امبراطورهم ، فقد كان مشوهاً في اصله ، غير مستق مبادئه من المناهل الانجيلية الصافية : تمدد الشعب المسكوبي ولم ينفذ خرافاته كلها ولم يؤمن ايماناً متورراً ، مما يفسر الحالة التعيسة الروسية في زماننا بعض التفسير ؛ اقول بعض التفسير ، لان

على تلك الرغبة ، واذا بصوت عرفته من قبل يطرق سمعها . فارتعشت ، وأسرعت تفتح الباب . واذا بها ترى النورية صائحة :

بضّاره برّاجه بتشوف البخت !

— اهلاً وسهلاً بعجوز الخير !

— وبكِ ، يا زينة .

— تعالي ، بصّري لي !

— تكرمي ، يا زينة . تفضّلي وضعي يدك هنا .

وبعد اجراء العملية المشهورة ، كانت خلاصة « التبصير » ، ونتيجة « بخت الستّ سلمى » ان النورية تداويها لقاء بعض دريهمات ، وتكفل لها ولداً ذكراً بعد تسعة اشهر .

وهكذا تمّ الاتفاق ، فكانت النورية تأتي كل اسبوع الى احد المغاربة ممن اتقنوا فنّ التدجيل والشعوذة ، فيعطيها قناني ومساحيق تحملها الى منزل سلمى ، فتتقدها هذه اضعاف الثمن مع الحلوان ، وتشرب الادوية بكل لهفة متأكدة ان بها نيل المبتغى . حتى انفقت المسكينة المبالغ الطائلة ، فانسأت البضّارة انسلال الافعى ، وتلاشى صدى صوتها في الازقة والمنعطفات .

ومضت الاشهر ، فاخذ النساء يتحدّثن في اجتماعاتهنّ عن سلمى ، وعن طفلها المزعوم ؛ فمنهنّ مصدّقات ، ومنهنّ مكذّبات . اما سلمى فكانت طريحة الفراش ، تقاسي امرّ الالام .

كثر اللغط في مسألتها ، وابتدأت العجائز من ذوات القربى يزرنها في الليالي الساهرة ؛ فيزدن آلامها من حيث يردنَ تخفيفها ، ويقلقنها بأسئلتهنّ الباردة وملاحظاتهنّ التافهة ، حتى اذا خرجن ، قلبنَ شفاههنّ ، وتهامسنَ :

— « مسكينة سلمى ! وا ولدي ! حطّت حالها ومالها وما استفادت شيئاً ! هي مغشوشة فلنتركها في غرورها . »

ثم يرجعن في اليوم التالي ، وكلّ منهنّ تريد ان تمرّض النفساء ! . . .

بقيت سلمى خمسة عشر يوماً على فراش الآلام ، وهي لا تدري ما تعتقد . فقرّ رأي زوجها وابيها على ان يُرسلا الى بيروت ، فيستدعيا طبيباً ماهراً .

وبينا الجميع ينتظرون صامتين وصول الطبيب ، وسلمى تتقلّب يائسة من الحياة ، وزوجها يفكّر حافي الرأس ، وابوها يمسح دموعه ساكتاً ، والعجائز مصطفّات حولها كالتماثيل ، اذا بصوت رنّ تحت الشباك :

بصّاره برّاجه بتشوف البخت !

فتململت سلمى كأنها افاقت من حلم مزعج ، وأومأت ان ادعوها ، فتسارع العجائز ، والابتسامة على شفاههنّ .

دخلت النورية المعروفة ، فسلّمت على سلمى ، واعتذرت عن غيابها . ثم رمت اصدافها متمتمة . فانتعشت سلمى وصاحت :

— دخيلك !...

فاجالت النورية الاصداف ثانية ، وقالت ، بعد تأمل طويل :

— معك ولد ذكر كما قلت لك ...

وكأن قوّة خفيّة خنقت الكلام في حنجرتها . فجمعت اصدافها بسرعة وسكون ، وتراجعت متخاذلة ، مطرقة ، مختبئة بين النساء . ذاك انها بصرت بالطبيب داخلاً على عجلة . فانصرفت اليه الابصار ، وعلقت بشفتيه الآمال . فتقدّم وفحص المريضة الفحص الدقيق ، وما هو ان مال الى زوجها وابيها يهامسهما والاهتمام يقطّع انفاسه ، وما هو ان بدت اللوعة باروع مظاهرها على وجهي الرجلين ، حتى فهمت سلمى الحقيقة الهائلة ، وان كلّ ما سقته من المساحيق وجرعته من العقاقير لم يكن بالادوية النافعة . فصرخت صوتاً مزعجاً وأغمي عليها ، فاسرع الطبيب يعالجها بالمنعشات والعجائز يفركن يديها ورجليها .

اما النورية فانها اغتنمت تلك الفرصة ، فتغلغلت بين النساء حتى انسلّت الى الخارج ، تاركة سلمى بين الحياة والموت . وبعد ان القت نظرة اخيرة على المنزل ، رفعت جرابها باستخفاف ، وسارت متمهلة ، وصدى صوتها يرنّ في الازقة ويتموّج في المنعطفات :

بصّاره برّاجه بتشوف البخت !

امر فساد الامم وانقلابها من الخير الى الشر مشكل متراءي الاطراف، واصله تنازع عاملي الخير والشر في الانسان الحرّ. فالدين، وان يكن نوياً صحيحاً، فلا يقوى دائماً على حرية الانسان ليحول دونه ودون المحرّمات.

ومما نرى مفيداً في زيارته على جواب الرصيفة ودليلاً على ان الدين المسيحي براه من مساوئ المدنية الغربية هو احتجاج رجال الدين عليها؛ وما ان تطالع الصحف والمجلات الاوربية الدينية حتى تكون على بيّنة بان الداء، وان يكن عضالاً، فمعالجته قائمة على قدم وساق. وان تكن الادوية غير ناجعة ظاهراً على ما يرام، فهي بالحقيقة تعمل مفاعيلها الحيوية. وهناك ايضاً نظرات لا بد من مراعاتها للالمام باطراف المشكل: منها ان الشر سريع المجاهرة كثير الضوضاء، اما الخير فيختفي تحت اجنحة الحشمة والتواضع والكفران بالذات. وكونه خفياً لا يجعله اقل من الشر وجوداً ونفوذاً. وان توهم البعض ان المسيحية مزعزعة على اساساتها بما يحكمون عنها من مظاهر الفساد الآتي من الغرب فهؤلاء حقيقون بان يقرأوا ما كتبه المنفلوطي في هذا الصدد منذ عشرين سنة ولا يزال لكلامه رنته الحالي، قال (١):

يريد المصري ان يقلّد الغربيَّ في نشاطه وخفته فلا ينشطُ الا في غدْوته ورَوْحته، وقعْدته وقوْمته، فاذا جد الجد وأراد نفسه على ان يعمل لنفسه عملاً من الاعمال المحتاجة الى قليلٍ من الصبر والجلَد والكد كان الملل أسرع الى نفسه من الماء الى الحدور

يريد ان يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منها الا أن الاولى التخنثُ في الحركات، والثانيةَ التردّدُ على الحانات

يريد ان يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها وصريرها وصفيرها فاذا قيل له هذه المقدمات فأين النتائج أسلمَ رجليه الى الرياح الاربع واستَنَّ في قراره استنان المهر الأرِن، فاذا سمع صفير الصافر مات وجلاً، واذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

يريد ان يقلده في السياحة فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الطبيعة المائتة فصلَ الربيع حتى اذا حان حينُه طار الى عواصم اوربة طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ولا يلوي على شيء مما وراءه حتى يقعَ على مجامع اللهو ومكامن الفجور وملاعب القمار، وهنالك يَبذل من عقله وماله ما يعود بعده فقير الرأس والجيب لا يملك من الاول الا ما يقوده الى طويق الباخرة التي تحمله

(١) النظرات، الجزء الاول، ص ١٠٢، طبعة ١٩٠٩

في أوبئه ، ولا من الثاني اكثرَ من الجمل الذي يدفعه للصحافي ليكتبَ له في حوادث صحيفتـه حادثة عودته ، موشاة بجمل الاجـلال والاحترام ، مطرزة بوشائع الاكرام والاعظام

يريد ان يقلده في العلم فلا يعرفُ منه الا كلمات يرددهـا بين شدقيـه ترديدًا لا يلجأ فيه الى ركن من العلم وثيق ولا يعتصمُ به من جهل مُشين

يريد ان يقلده في تعليم المرأة وتربيتها فيقنعهُ من علمها مقالة تكتبهـا في جريدة او خطبةٌ تخطبها في محفل ومن تربيتها التفننُ في الازياء والمقـدرةُ على سحر النفوس واستلاب الالباب

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورةً مشوهة وقضيـة معكوسة لا يعرف لها مغزى ولا ينتحي بها مقصدًا ولا يذهب فيهـا الى مذهب فيكونُ مثله في ذلك مثلَ جهلة المتدينين الذين يقلدون السلفَ الصالح في تطهير الثياب وقلوبهم ملأى من الاقذار والاكدار وفي اداء صور العبـادات وان كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر والذين يتشبهون بعمرَ في ترقيع الثياب وان كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة الاسرائيليين

اما شأنه في رذائلها فانه اقدر الناس على اخذها كما هي فينتحرُ كما ينتحر الغربي ويُلحد كما يلحد ويستهتر في الفسوق استهتاره ، ويتمرس في الفجور تمرسه .

روينا الكلام ، والعهدة على المتلوطي ، وهو مبالغ في وصفه ، شأنه في الكثير من مواقفه البيانية ، وحسبنا التنويه برجالات مصر العظـام من بلغوا بمشاريعهم الى مستوى مشاريع الامم العظمى في مرافق الاقتصاد والفن والتعليم وقـد تعلموا على الغرب ، فتكون على بصيرة من الحقيقة .

ولكن العبرة الثابتة هي ان الانصاف في الحكم العام على الشعوب عسير جدًّا . . . وعلى كل ، فقد راقتنا النتيجة التي استنتجها صاحب الشرق والترب من مقاله وهي : ان المسيحية لا شرقية هي ولا غربية ، بل هي فوق الامم والشعوب بمبادئها وغاياتها . وقال :

وللشرق ان يقتبس من مدنية الغرب ما يشاء كثيرًا كان ام قليلًا . ولسنا ننكر ان فيها كثيرًا من مظاهر الجمال والنفع . ولكنه يستطيع ان يقبـل المسيحية دون ان يقبل المدنية الغربية ولا ينسب الى المسيحية ما يراه في تلك المدنية من نقائص وشوائب .

الميرون وتقديسه عند الاقباط

لا تسأل البروتستانت الاتفاق على تعليم ثابت أكيد في عدد اسرار البيعة وطبيعتها . لان مبدأهم الديني الاساسي القائل « بالفحص الحرّ » وبعدم التقيّد بالسلطة الظاهرة الواحدة ، يؤدي حتماً الى اختلاف الآراء بتعداد الاسرار وتحديد طبيعتها . فمنهم من قال ان الاسرار اثنان فقط ، ومنهم من قال انها خمسة ، ومنهم من وافق الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً على القول انها سبعة ، ومنهم صاحب مجلة الشرق والغرب . نشر للسيد توفيق بك اسكاروس مقالاً على الميرون وتقديسه ، واعرب عن إحترامه لتعليم الكنيسة القبطية من غير ان يُبدي اعتقاده الشخصي بسرّ الميرون .

ومن المعروف ان الميرون المستعمل في الاسرار هو نوع من الزيت المطيّب . وقد تختلف تشكيلات ذلك الطيب مع اختلاف الطقوس ولا تعارض الكنيسة الكاثوليكية في استعمال تلك الطيوب ، على شرط ان تكون كمية الزيت فيها كافية للمسح . وراقنا ما كتبه السيد اسكاريوس في طريقة صنع الميرون عند الاقباط فقال (ص ١٣٩) :

وموجز هذه الطريقة هي ان يأمر البطريرك قبل الصوم المقدس بشراء الاقاويه التي يتركب منها الميرون المقدس ، وعددها ٣٨ صنفاً بمقادير معينة يضاف اليها دهن البلسان والزيت بمقدار معين ايضاً فيكون المجموع ٤٠ صنفاً

وتقسم الثمانية والثلاثون صنفاً الى اربع مجموعات يوتى بكل مجموعة على حدتها ويصلى عليها في اوقات معينة ولكل وقت صلوات خاصة :

١ يبدأ البطريرك بسحقها سحقاً جيداً في الاسبوع الثاني من الصوم المقدس ، بوجود المطارنة والاساقفة الذين يعاونون مع غبطته ويساعدهم جماعة من الرهبان .

٢ وفي الاسبوع الثالث يوضع مسحوق المجموعة الاولى في الماء النقي المرشح ساعات معينة ، ثم يطبخ بزيت الزيتون ويصفى .

٣ يطبخ مسحوق المجموعة الثانية بعد ان ينقع في الماء مضافاً اليه مطبوخ المجموعة الاولى ويصفى ، ويطبخ مسحوق المجموعة الثالثة مضافاً اليه مطبوخ المجموعتين الاولى والثانية ويصفى .

٤ يطبخ مسحوق المجموعة الرابعة مضافاً اليها مطبوخ المجموعات الثلاثة

ويصفى ، ويكون هذا المطبخ الاخير هو الميرون المقدس .

ويتم كل ذلك بصلوات معينة تقرأ في اثناء السحق والطبخ والتصفية . وفي يوم خميس العهد يصلي البطريرك قداساً جبرياً خاصاً بالميرون ، وكذلك يوم السبت (سبت الفرح او سبت النور) وقبل عيد الفصح ، وفي سحر عيد الفصح يضيف البطريرك الخميرة الباقية من الميرون الى الميرون الجديد ، وتستمر اقامة القداسات الخاصة بالميرون الى يوم الاحد التالي لعيد الفصح (وهو المعروف بالاحد الوحيد او احد توما) ثم يحفظ ذخيرة مقدسة بعد ما يوزع جانب منه على الكنائس للخدمة.

وعرض السيد اسكاريوس اسماء مفردات الميرون على الاستاذ مايرهوف ، فبين مسمياتها باللغة الفرنسية وهذه هي :

الطبخة الاولى — يؤخذ نوار القندول وهو الدارشيشان المعروف الان بزهر الفُتنة (بضم الفاء) (*Fleurs de l'Acacia Farnesiana*) : ١٦ درهماً وثلثان .

عيدان السليخة وهي القرفة الخشبية (*Cinnamomum Cassia*) : ٢٠ درهماً .

الحُمام المعروف الآن بتين الفيل (*Amomum*) : ٢٠ درهماً .

اصل السوسن الاسماخوني (*Racines de l'Iris bleue*) : ٦ دراهم وثلثان .

قصب الذريرة (*Calamus aromaticus*) : ٢٠ درهماً . وفي نسخة اخرى ١٠ دراهم .

الطبخة الثانية — يؤخذ قسط زبدة (*Costus*) : ٢٠ درهماً .

ورد احمر عراقي متنوع الاقاع (*Roses rouges de l'Iraq*) : ٢٠ درهماً . وفي نسخة اخرى ١٢ درهماً .

صندل مقاصيري ابيض مدقوق مسحون (*Bois de santalete Macassas*) : ٢٠ درهماً .

قرفة وقرنفل وعيدانه (*Cannelle et girofle*) : ٢٠ درهماً . وفي نسخة اخرى ١٢ درهماً .

الطبخة الثالثة — يؤخذ زرنباد ، والان كافور الكمك (*Curcuma numbat*) ، وهي حشيشة تشبه السعد : ٢٠ درهماً .

قشور السليخة الحمراء الجيدة (*Ecorce de Cinnamomum Cassia rouge*) ٦ دراهم وثلثان . وفي نسخة ٧ دراهم .

جوز بوار كبار (جوزة الطيب) (*Noix muscade*) : ٣ حبات او جوزات وثلث . وفي نسخة ١٥ وثلث

سنبل الطيب عصافيري — الخزامى اولاوندا بالافرنجية (*Lavande*) : ١٠ دراهم

قرنفل (*Cannelle*) : ٦ دراهم وثلثان .

بسباسة — داركسته (*Macis en feuilles*) : ٦ دراهم وثلثان .

الطيخة الرابعة — يؤخذ اصطرك ابيض — ميعة سائلة (*Storax liquide*) ٢٦ درهماً وثلثان .

دار صيني الصين (*Cannelle de Chine*) : ١٦ درهماً وثلثان .

زعفران شعر (*Filaments de Safran*) : ١٣ درهماً وثلث . وفي نسخة ١٢ درهماً ونصف .

عود هندي (*Bois de Paloès*) : ٦ دراهم وثلثان . وفي نسخة ١٢ درهماً .

هناك ايضاً صفة الدرور وهي ان يؤخذ دار صيني الصين وسنبل الطيب منقى: ٢٠ درهماً ، وعود هندي: ٢٠ درهماً ، وقشور سليخه حمراء: ٢٦ درهماً وثلثان ، وبسباسة (داركسته) : ٦ دراهم

ولا بأس من ذكر صفتها : تدق هذه الحوائج وتنخل بمنخل حرير ارق ما يكون ويضاف بوزن ستين درهماً دهن بلسان خالص ، ويحل العطر مع الزيت المطبوخ في الزجاجة ، ويحرك في كل يوم مراراً سبعة ايام ، ثم يرفع ويؤخذ من صفوه عند التقديس .

وان في هذا التفنن الغريب بصنع الطيب الموافق عليه من الكنيسة الجامعة لشاهد على ان الاختلاف بالعرضيات والطقوس الخارجية لا يضر بوحدة الايمان ، ان كان الاتفاق تاماً في العقائد الاساسية . فيا ليت اخواننا الاقباط الارثوذكس ينظرون الى قرب المسافة بينهم وبين الكثلكة وبعدها بينهم وبين البروتستانت ، ويلتمسون السبيل الى الاتحاد بالكنيسة الجامعة باقرب الطرق اليها وهي طريق رومة .

ف . ت .